

مقام تزكية النفس عند الصوفية

الأستاذة: بلعباس زليخة

المركز الجامعي الطارف

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبينا محمد وعلى جميع إخوانه النبيين وآله وصحبه وسلم، أما

بعد:

إن التصوف علم يبحث في الأخلاق وتزكية النفس وكيفية تصفيتها من أمراضها وأدرانها وتحليلها بالأوصاف الحميدة التي كان عليها السلف الصالح. قال الإمام الجنيد رحمه الله: "التصوف: استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني." وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: "التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية".²

لم يكن التصوف في يوم من الأيام شرعة مستقلة ولا دينا جديدا، إنما هو تطبيق عملي لدين الله تعالى وإقتداء بسنة رسوله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. فالتصوف جزء لا يتجزأ من دين الإسلام والمقصود به هو تزكية النفس وإصلاح القلب وتعمير الظاهر والباطن بكل خير للوصول إلى مقام الإحسان.

إن تزكية النفس وتطهيرها من سوء الاعتقادات وسوء الأخلاق من أعظم غايات الشريعة الإسلامية كما قال صلى الله عليه وسلم: {إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق}. كما أن ترقية النفوس هي منتهى آمال السالكين إلى الله، والنفس تترقى بالمجاهدة والرياضة من كونها أمارة إلى كونها لؤامة ثم مطمئنة. فالنفس الأمارة: هي التي تأمر صاحبها بما تهواه من شهوات الباطل؛ فإن أطاعها قادتته إلى كل شر وإن عصاها فقد ضفر بكل خير، وأما اللؤامة: (فهي النفس اللوؤم التي تنزج على ما فات وتلوم عليه) كما قال ابن عباس وقتادة. وأما المطمئنة فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعة أمره، فاطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى لقائه ووعدده، واطمأنت إلى قضائه وقدره.³

إن لتزكية النفس أهمية بالغة للإنسان؛ فالنفس من أشد أعداء الداخلين لأنها تدعو إلى الطغيان وإثارة الحياة الدنيا، وسائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانبها، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يستعيز بالله من شرها كثيرا، كما في حديث أبي هريرة عند ابن أبي حاتم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ "فألهمها فجورها وتقواها" فقال: {اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها}. وفي المسند والترمذي أنه صلى الله عليه وسلم علم حصين بن عبيد أن يقول {اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي}.

قال ابن القيم رحمه الله: وقد اتفق السالكون على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين

القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إمامتها والظفر بها.³³

إن تزكية النفس طريق الجنة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا خَأَفَ مَرَبِّهِمْ فَهِيَ النَّفْسُ الْهَوَىٰ (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (41)﴾⁴ فهي إذن شرط لدخول الجنة.

فإذن ينبغي علماً للإنسان أن يعمل على إكمال نفسه بتزكيتها وتربيتها، فهذه النفس تصاب بالأعراض التي تصاب بها الأبدان، فهي محتاجة إلى تغذية دائمة ورعاية مستمرة، فلذلك احتاج الإنسان إلماً يراقب تطورات نفسه، ويعلم أنها وعاء إيمانه، وأهم ما عنده هو هذا الإيمان، فلا بد من العمل على تنمية هذا الإيمان وزيادته عن طريق تزكية هذه النفس وتهذيبها. يقول سيد قطب رحمه الله: "إن هذا الكائن (أي الإنسان) مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد مزدوج الاتجاه، بمعنى أنه في طبيعة تكوينه : من طين الأرض، ومن نفخة الله فيه من روحه، وهو لذلك مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى أيهما أراد، وهذه قدرة كامنة في كيانه يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها...﴾ ويعبر عنها بالهداية تارة ﴿وهديناه النجدين﴾ وإلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة وعافية مدركة موجهة في ذات الإنسان هي التي تتناط بها التبعة، فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعدادات الخير فيها وتغليبها على استعدادات الشر فقد أفلح، ومن أظلم هذه القوة وخباها وأضعفها فقد خاب".⁵

ومن الوسائل التي يتوصل بها إلى تزكية هذه النفس وتهذيبها ما يلي:⁶

- التوبة، فهي أول مقامات منازل العبودية عند السالكين، وبها يذوق الإنسان حلاوة الانتقال من التخلية إلى التحلية، قال الله عز وجل منوها بشأنها: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾⁷ وقال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم﴾⁸
- لزوم الاستغفار والذكر عموماً، لقول الله عز وجل: ﴿ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾⁹ وقالتعالى: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾¹⁰ وقالتعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفراً﴾¹¹ إلى غير ذلك من الآيات.
- المحافظة على الفرائض، لأنها أفضل طاعة يتقرب بها العبد إلى مولاه في قوله تعالى في الحديث القدسي: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه».
- الإكثار من النوافل لقول الله عز وجل في الحديث القدسي: «...ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه...» وأعظمها تأثيراً في تزكية النفوس هو ما كان منها أكثر مذلة وخضوعاً لله عز وجل.
- تدبر القرآن، فهو جلاء القلوب وإذا صفى القلب زكت النفس، ففي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: {إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل وما جلاؤها قال : تلاوة القرآن وذكر الموت}.
- مخالفة النفس والإنكار عليها وعدم تلبية رغباتها لأنها داعية للراحة والعصيان، يقول الغزالي رحمه الله: «اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء مبالغة في الشر فرارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك»¹²

- سوء الظن بالنفس والحيولة بينها وبين الاغترار بالعمل، فإن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش، يقول ابن القيم رحمه الله: «... على السالك أن لا يرضى بطاعته لله، وألا يحسن ظنه بنفسه، فإن الرضى بالطاعة من رعونات النفس وحماقاتهما، ودليل علجه الإنسان بحقوق العبودية وما يستحقه الرب سبحانه ويجب أن يعامل به، ثم إن رضا الإنسان وحسن ظنه بنفسه يتولد منهما من العجب والكبر والآفات الباطنة ما هو أشد من الكبائر الظاهرة من الزنا وشرب الخمر، ولا يكمل هذا المعنى عند العبد إلا أن يربأ بنفسه عن تغيير المقصرين من إخوانه، فازدراء الإنسان بنفسه أولى به من تعير المقصرين، ولعل تعبيرك لأخيك أعظم إثماً من ذنبه لما فيه من صولة الطاعة وتركية النفس وشكرها والمناداة عليها بالبراءة من الذنب وأن أخاك باء به، ولعل كسرتة بذنبهما أحدثه له من الذل والخضوع والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس خاشع الطرف منكسراً أنفع له وخير من صولة طاعتك وتكثرك بها، فذنبك له فيه أحب إليه من طاعة تدل بها عليه، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر»¹³

- محاسبة النفس : وقد دل على وجوب محاسبة النفس قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾¹⁴ وقوله صلى الله عليه وسلم: {الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى¹⁵}، وقال الحسن البصري: "إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة منهمة"¹⁶. وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: 'مكتوب في حكمة آل داود : حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحلو يجمع، فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات. ومن أسباب تركية النفس الدعاء، فهو سلاح المؤمن، وذلك بأن يلجأ الإنسان إلى الله دائماً أن يقيش نفسه وأن يعينه على طاعة الله، فقد كان منذ عائلته عليها الصلاة والسلام: {اللهم أنعم عليّ و أجبرني وأهدني لصالح الحال وأعمال الأخلق، فإنها ليهد لي صالحة ولا يصرف سيئها إلا أنت}.'¹⁷

هذه الوسائل وغيرها من أهم ما اختص به التصوف وحرص على تجسيده والالتزام به. «قال ابن زكوان في فائدة التصوف وأهميته: "علم به تصفية البواطن من كدورات النفس في المواطن"؛ أي عيوبها وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وحبالثناء والكبر والرياء والغضب والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء، لأن علم التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفية، فبعلم التصوف يتوصل إلى قطع عقبات النفس والتنزّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله سبحانه وتعالى»¹⁸.

أما تحلية النفس بالصفات المحمودة كالنوبة والتقوى والاستقامة والصدق والإخلاص والزهد والورع والتوكل والرضا والتسليم والأدب والمحبة والذكر والمراقبة... فللصوفية بذلك الحظ الأوفر في العلم والعمل.

فالتصوف هو الذي اهتم بهذا الجانب القلبي بالإضافة إلى ما يقابله من العبادات البدنية، ورسم الطريق العملي الذي يوصل المسلم إلى أعلى درجات الكمال الإيماني والخُلقي، فهو من هجعمليكامل، يحقق انقلاب الإنسان من شخصية منحرفة إلى شخصية مسلمة مثالية متكاملة، وذلك من الناحية الإيمانية السليمة، والعبادة الخالصة، والمعاملة الصحيحة الحسنة، والأخلاق الفاضلة.

ومن هنا تظهر أهمية التصوف وفائدته، ويتجلى لنا بوضوح، أنه روح الإسلام وقلبه النابض. لهذا نرى العلماء العاملين، والمرشدين الغيورين على دينهم، ينصحون الناس بتحقيق التقوى والإخلاص لله ودوام تزكية النفس ليتذوقوا معاني الصفاء القلبي والسمو الخُلقي، وليتحققوا بالتعرف على الله تعالى المعرفة اليقينية، فيتحلوا بحبه ومراقبته ودوام ذكره.

ولما كان هذا الطريق صعباً على النفوس الناقصة، فعلمنا الإنسان أن يجتاز هبوعاً موصراً ومجاهدة حتى يقدِّم نفسه لله تعالى وهو غضبه.

«عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلّة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين. وكلما استوحشت منتفراً فكأنظر إلّال في السابق، واحرص على إلّال الحاقبهم، وغضّالظر فعنساوهم، فإنهم لن يغنوا عنكم إلّال الله تعالى شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريقهم فليسير كفلا تلتفت إلّالهم فإنكم تلتفت إلّالهم أخذوك عاقوك»¹⁹

إن التصوف صفاء المعاملة مع الله والصدق بالقول والعمل والنية واجتناب المحرمات والالتزام بالواجبات الإكثار من نوافل الطاعات وتعلق القلب بالآخرّة وعدم تعلقها بالدنيا وزينتها مع التواضع والانكسار وغض البصر وحفظ الجوارح، مع الحلم والتأدب بالشرع وإتباع الرسول في كل صغير وكبير، والعمل بقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾²⁰. اللهم اجعلنا من أحبائك وخاصتك، ووفقنا لفعل ما تحبه وترضاه من صالح القول والعمل، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والحمد لله رب العالمين وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش:

- (1) نور التحقيق في صحة أعمال الطريق، حامد صقر، مطبعة دار التأليف، مصر، ط2، 1970، ص93.
- (2) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم الجوزية ج 1، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، 1975، ص75 – 78.
- (3) سورة النازعات، الأيتان 40-41.¹
- (4) في ظلال القرآن ج6، سيد قطب، ص 3893.¹
- (5) دليل إنه الله، سيد محمد بنجدو:
- (6) http://www.zadalmaad.com/da/show_html_show.php?id=161
- (7) سورة النور من الآية 31.¹
- (8) سورة التحريم من الآية 8.¹
- (9) سورة الزخرف الآية 36.¹
- (10) سورة النساء الآية 110.¹
- (11) سورة نوح الآية 10.¹
- (12) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج 4، ص 382.¹
- (13) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، هذب عبد المنعم صالح العزى، ص 210.¹
- (14) سورة الحشر الآية 18.
- (15) رواه أحمد وغيره.
- (16) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم الجوزية ج1، ص78.
- (17) رواه الطبراني.
- (18) النصر النبوية، مصطفى المديني، ص 26.
- (19) المننا الكبرى، للشعراني، ج1، ص4.
- (20) سورة آل عمران الآية 31.